المنشار التونسي عدد 54.. تقطيع أوصال الحرية

فضيحة معرض الكتاب بتونس تجاوزت الحدود، ولسنا نحتاج دليًلا أبلغ ولا أوضح من خروج الرئيس خروجًا استعراضيًّا ليلة الثالث من مايو/ أيار، ليخفّف من آثارها على نظامه وعلى شخصه.

ردّت الصحافة العالمية المهتمة بالشأن التونسي بسرعة ونشرت النار في هشيم النظام، نظام الانقلاب في تونس عاد إلى أساليب بن علي، وشرع يصنصر الكتب والأفكار ويطارد أصحاب الرأي.

قام الناشرون بحركة تضامنية سريعة وفعّالة بإغلاق أجنحتهم بالمعرض، وتفاعلت مواقع التواصل بشكل أسرع مع الحدث فوسّعت صداه، فوجدت مديرة المعرض نفسها في ورطة اضطرتها إلى رمي كرة اللهب بعيدًا عنها، فهي ليست من اتخذت قرار منع ترويج الكتاب وإغلاق مقر الناشر.

هنا تبيّن للناس جهة المنع، وتحدث البعض عن ميليشيا تأتمر بأمر وزيرة الثقافة، هدأت الأزمة أو رُدمت بفعل ماكينة إعلامية مدرّبة تقف مع الرئيس ونظامه، لكن الجمهور الواسع ظلّ يتحدث عن المنشور 54 المتعلق بجرائم النشر بعد الانقلاب.

منشور متخلّف

المنشور عدد 54 صدر من دون مقدمات موضوعية، إذ قام الناس ذات صباح فوجدوه مسلّطًا على رؤوسهم وأقلامهم، لقد كان في رأس الرئيس ضمن خطته الخاصة بالسيطرة والتحكم الفردي (وهو المشرع الأوحد الذي لا تُراجع قراراته)، ومضمون المنشور يقوم على محاكمة النوايا قبل الفعل، وهو يسحب الجميع إلى منطقة "الأصل في الأشياء المنع لا الإباحة"، وهو منطق نظام بن علي وكل نظام قمعي يضيق بالرأي المخالف، ولدينا عليه أمثلة في كل المنطقة العربية.

بشاعة المرسوم كشفت مساحات الحريات التي فرضتها الثورة طيلة عشرية الحريات الباهرة، تحررت فيها الأقلام والعقول فتمتّعت بقول ما تريد دون رقيب أو حسيب، حتى أن أعداء الحرية من ماكينة إعلام بن علي كانوا أكثر من تمتع بها وعبث بنتائجها، والآن بدأ الجميع يحترق بنار محاكمة النوايا قبل الفعل.

لاحظنا للأسف علامات خوف كثيرة من قبل مدونين كانوا مطلقي الأيدي والألسن، هناك قلة باقية على خط نار الحريات وتكتب بشجاعة، لكن الشعور بأن مساحة الحريات قد ضاقت صار حقيقة ماثلة في الشارع الافتراضي والشارع الاجتماعي.

وعندما تسمع أصوات دفاع قوية عن الحرية، تخرج ماكينة بن علي/ الانقلاب لتقول للناس: "ماذا تفيدنا الحرية؟" أو "الحرية ما توكل خبز". جماعات الخبز قبل الحرية يعتلون المشهد ويملكون المناشير وقد بدؤوا "الخشقجة"، حيث بإمكان أي مسؤول في ماكينة الانقلاب أن يتظلم لدى القضاء من تدوينة عابرة قد يكون صاحبها كتبها بشكل ساخر.

الأصوات المراجعة للموقف من لعن العشرية لصالح الانقلاب بدأت تُسمع، لكنها مرتبكة، فكل تمجيد لمكسب من مكاسب العشرية يصبّ في مصلحة الحزب المتهم بأنه سوّد أيام تونس، أي حزب النهضة.

طبعًا مراجعو مكاسب العشرية وجدوا مدخلًا آخر للقول، فقد بدأنا نسمع جملًا متناثرة أن مكاسب العشرية ليست من فعل حزب النهضة، إنما هي من فعل التعدد السياسي الذي حكم، لكنهم لا ينتبهون إلى أنهم يبيّضون حزب النهضة عدوهم اللدود، ولذلك هم في ورطة كبيرة. نتمتع الآن بمتابعة ارتباكهم، فمناشيرهم الحربائية تقطع أوصالهم قبل أوصال حزب النهضة.

إعلاميون لا يؤمنون بالحريات

في مشهد الدفاع عن الحريات من منشور أو بالأحرى منشار 54، فضح إعلاميون لا يؤمنون بالحرية إلا لأنفسهم، لذلك يعلو صراخهم إذا طالت الاعتقالات واحدًا من صفهم، بينما يصمتون صمت القبور إذا كان الإعلامي من صف النهضة أو من صف الثورة المنقلب عليها.

لقد حوكم أمام محكمة عسكرية إعلامي قريب من النهضة، لأنه قرأ قصيدة لأحمد مطر على المباشر (صارت تعرف بقضية القصيدة)، لم تنبس نقابة الصحفيين ببنت شفة إلا بضغط كبير، فأصدرت بيانًا خجولًا يطالب بمحاكمة عادلة دون أية إشارة إلى منشور 54.

أمامنا حقيقة فاجعة، يوجد إعلاميون لا يهتمون بالمساس بالحريات، ولديهم استعدادات للعودة إلى ما دون سقف وكالة الاتصال الخارجي (مؤسسة رقابية أقامها بن علي حوّلت الإعلاميين إلى مرتزقة ومخبرين عند الأجهزة الأمنية)، فالأولوية عندهم ألا يتمتع خصمهم السياسي بالحرية التي تطلق أجنحته (رغم أنه لا يملك إعلاميين أفذاذًا ممّن يقلب المشهد الإعلامي بتدخل تلفزي أو بمقال مكتوب).

صفّ الإعلاميين المخترق من قبل الفريق الاستئصالي الموالي للانقلاب يقوم بدور تخريبي، ويغمز للانقلاب أن يواصل تقطيع أوصال المشهد الإعلامي وترهيب الأقلام الحرة الباقية.

الانقلاب يراقب الوضع ويعرف أن فرقة الإعلاميين حول الحرية تخدمه، لذلك يتقدم بمنشاره/ منشوره في المتبقي من مساحة الحريات ويضيّق على الناس، وهي الفرقة نفسها التي تكسر ظهر جبهة المعارضة.

إذ إن كل اجتماع سياسي يحضره حزب النهضة أو بعض أنصاره وجب كسره والعمل على الحد من فعاليته، حتى أن اجتماعات التضامن مع السجناء صارت تفرز سجناء النهضة، فتتضامن مع الجميع إلا هم.

هذه الفرقة هي أقوى أسلحة الانقلاب، فنحن نكتب منذ بدايته أن قوته ليست منه إنما هو قادر وباقٍ ويحقق مكاسب خاصة في مربع إعدام الحريات باختلاف معارضيه حول الأسُس، وهو الاختلاف الذي يغذيه الفريق الاستئصالي الذي كلما تخيّل سقوط الانقلاب وجد النهضة تعود وتشارك، فيُمعن مع الانقلاب ولو فقد كل حريته.

رغم هذا، نقول إن مرحلة الفرز مهمة رغم الثمن المحتمل، ومهما طال بقاء الانقلاب فإن المشهد الإعلامي قد عرف أقلامه وأصواته المؤمنة فعلًا بالحرية، وسيكون من الغباء المطلق أن يشارك مدمّرو الحرية في إعادة نشرها، فالانقلاب سيرحل بهم مهما طال بقاؤه.

ولعلّ في بعض الدروس القاسية فائدة أكثر من إيمان طفولي سيطر أثناء العشرية، بأن كل من تحدّث عن الحريات أو استفاد منها مؤمن فعلًا بقوتها وجدواها. مكلف هذا الفرز لكنه ضروري للمرحلة القادمة التي لا نشك في حلولها، ولدينا كفاية من الصبر لتهيئة أرضية صلبة تقوم عليها فلا ينشرها منشور أو منشار.

رابط المقال: https://www.noonpost.com/47049/